الخليفة العالم
الحكم المستنصر

بقلم الدكتور إحسان عباس

شهدت الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكَم المستنصر نهضة ثقافية واسعة ، ويرجع أكثر الفضل فى ذلك البعث العلمى والأدبى إلى الحكَم نفسه ؛ فهو الذى كان يوجه الحركة الثقافية ويرعاها : أولاً حين كان وليًّا للعهد فى أيام الناصر أبيه ؛ وآخراً فى أيام خلافته من سنة (٣٥٠ — ٣٦٦ ﻫ) حين ظل يحوطها بالتشجيع والتعهد والحماية .

ومما أغرى الحكم بالتوفر على هذه الناحية أنه هو نفسه كان مثقفاً واسع الاطلاع يجد متعة فى شهود مجالس العلماء والسماع منهم والرواية عنهم : سمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد بن عبد السلام الخشنى وزكرياء بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء[1] .

وكان نظّاراً فى الكتب كثير التعليق عليها ، وقلّما وُجد كتابٌ فى خزائنه إلا وفيه قراءته وتعليقاته عليه ، وكان يكتب فيه بخطه — إما فى أوله أو آخره أو فى تضاعيفه — نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وتذكير أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن . وكان موثوقاً به مأموناً عليه ؛ حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ، ينقلونه من خطه[2] . قال الحميدى فى بعض نقوله : هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطُّه حجة عند أهل العلم عندنا[1] .

وذكر ابن الأبّار أنه اجتمع له جزء مفيد مما وجده بخط الحكم المستنصر ، وأنه وجده يشتمل على فوائد جمة فى أنواع شتى[2] . ومن تقييداته أمثلة منقولة فى طبقات الزبيدى والمرقبة العليا للنباهى وتاريخ ابن الفرضى وغيرها .

وقد كانت خطة الحكم فيما يتأتى له من نهضة علمية ، تمتد إلى أمور متشابكة ، منها : إغراء العلماء بالقدوم إلى الأندلس ، أو بالتأليف من أجل خزائن الكتب الأندلسية ، ونقل الكتب من الخارج ، وتشجيع الثقافات المختلفة من أدبية ودينية وفلسفية ، ودفع ذوى الملكات من الأندلسيين إلى جمع التراث الأندلسى قبل أن يتطاول عليه الزمن ويتحيفه النسيان .

فمن إغرائه للعلماء والأدباء أن قدم عليه كثير من المشارقة ، تميز من بينهم أبو على القالى اللغوى ، ولا يستبعد أن يكون الحكَم هو الذى كتب إليه ورغّبه فى الوفود عليه ، فتلقّاه مرحِّباً وبالغ فى إكرامه ، وهو يومئذ ولىٌّ للعهد ؛ إذ كان قدوم القالى فى خلافة الناصر سنة ٣٣٠ ﻫ . وظل الحكم يوالى إكرامه ، بعد أن صارت إليه الخلافة ، وينشطه بواسع العطاء ، وباسمه طرّز أبو على كتاب الآمالى ، وكان القالى يمليه على طلبة من بنى ملول وغيرهم بالزهراء كل يوم خميس ،

(١) النفح ١ : ١٨٦ ط . بولاق .
(٢) الحلة السيراء ، الورقة : ٤٨ .

(١) جذوة المقتبس : ٩٤ .
(٢) الحلة ، الورقة : ٤٨ .

ثم زاد فيه ، فجعله ستة عشر جزءاً للعامة ، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءاً للحكم المستنصر [١] .

ولا ريب فى أن قدوم القالى إلى الأندلس كان عاملا من عوامل النهوض بالدراسات اللغوية والأدبية ، ولم يكن لدى الأندلسيين قبل قدومه من المشهورين إلا ابن القوطية وثابت وابنه قاسم ، وإلا الزبيدى ، وهذا الأخير – على علمه – تتلمذ على القالى ، وأفاد منه علماً جمًّا . ويحتاج أثر القالى فى الحياة العلمية بالأندلس إلى دراسة ليس هذا مكانها ، وحسبى أن أشير هنا إلى كثرة ما نقل معه من كتب مشرقية فيها عدد كبير من الدواوين ، وبخاصة دواوين الجاهليين والأمويين والمجموعات الشعرية الهامة كالمفضّليات والنقائض وشعر هُذَيل [٢] .

ومن العلماء الذين أغراهم كرم الحكم وتشجيعه محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخى الورّاق الذى ألّف للحكَم كتاباً ضخماً فى « مسالك إفريقية وممالكها » ، وألّف فى أخبار ملوكها وحروبهم والغالبين عليها كتباً جمة [٣] .

ومنهم أيضاً أبو الحسين محمد بن العباس مولى هشام بن عبد الملك ، وقد أجرى عليه المستنصر رزقاً موسعاً ، فقرأ عليه الناس كثيراً ، شيوخاً وشباباً ، ومن تلامذته الزبيدى ، وأهم ما رواه عنه الأندلسيون ديوان الصنوبرى [٤] .

وأكرم الحكم كذلك أندلسيًّا من الذين هاجروا إلى المشرق ، وهو أبو سليمان الهوّارى وأنزله بالزهراء ، ووسّع عليه ، وقرأ عليه ناس كثيرون [٥] .

وأغدق الحكم العطايا على البعيدين من العلماء والأدباء والفقهاء ؛ لكى يؤلفوا من أجل خزائنه ، أو يهدوا إليه مؤلفاتهم . فمن وصلت إليهم صلاته أبو إسحاق محمد ابن شعبان بمصر ، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى فيلسوف العرب ، وأبو الفرج الأصبهانى ، وقد تلقى منه أبو الفرج ، فيما يقال ، ألف دينار ذهباً عيناً ليرسل إليه نسخة من كتابه الذى ألّفه فى الأغانى ، فأرسل الأصبهانى من كتابه هذا إلى الأندلس نسخة منقحة ، قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم ، وألف له أيضاً أنساب قومه ، بنى أمية ، موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم ، وأنفذ معه قصيدة يمدحه بها ، ويذكر مجد قومه بنى أمية ، وفخرهم على سائر قريش ، فجدّد له عليه الصلة الجزيلة [١] .

أما فى جمع الكتب من الأمصار فكان شأنه فى ذلك عجيباً ؛ إذ اتخذ له ورّاقين بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ووجّه رجالاً إلى الآفاق بحثاً عن الكتب ، وكان من ورّاقيه ببغداد محمد بن طرخان . وكان يدفع فى الكتب أثماناً عالية ، فحملت إليه من كل جهة ؛ حتى غصّت بها بيوته ، وضاقت عنها خزائنه ، وحتى جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله ، وكاد يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة ، وكان عدد فهارس مكتبته أربعاً وأربعين فهرسة ، فى كل واحدة خمسون ورقة [٢] . ويقال إن عدد الكتب بلغ أربعمائة ألف مجلد .

ولم يكن الحكَم يفضل علماً على آخر ؛ ولذلك امتلأت خزائنه بكتب الحكمة والفلسفة والمنطق والطب ، وأقبل الناس على قراءة علوم الأوائل [٣] ، وكان الناس فى الأندلس ، قبل ذلك ، ينفرون منها . وأصاب العمل

---

(١) فهرسة ابن خير : ٣٢٥ .
(٢) المصدر السابق : ٣٩٥ – ٤٠٠ .
(٣) الجذوة : ٩٠ .
(٤) الفهرسة ٤٠٨ .
(٥) الفهرسة : ٣٥٨ .

(١) الحلة السيراء ، الورقة : ٤٨ .
(٢) هذا هو ما جاء فى الحلة السيراء ، وجمهرة الأنساب : ٩٢ والرقم يختلف فى مصادر أخرى ، أنظر المغرب ١ : ١٨١
(٣) طبقات صاعد : ٧٥ .

فى هذه الناحية العلمية شيء من التنظيم منذ أن وصلت إلى الأندلس هدية رومانس الإمبراطور البيزنطى سنة (٣٣٧ هـ) ، وفيها كتاب ديسقوريدس فى النبات مصوراً ، مكتوباً بالإغريقية ، ولم يكن بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ هذه اللغة ، فسأل الناصر — وهو الخليفة عهدئذ — إمبراطور القسطنطينية أن يبعث إليه رجلا يحسن الإغريقية واللاتينية ليُعلِّم عبيداً له يكونون مترجمين ، فبعث راهباً يدعى نقولا (سنة ٣٤٠هـ) تولى مع نفر من الأطباء بالأندلس البحث عن أسماء عقاقير ذلك الكتاب ، والوقوف على أشخاصها ، وتصحيح النطق بأسمائها . وعاش نقولا الراهب حتى صدْر دولة الحكَم . وكان فى هدية الإمبراطور أيضاً كتاب آخر فى التاريخ هو كتاب « هروسيس » المسمى Historia adversus paganos ، وقد قال الإمبراطور حين أرسله مخاطباً عبد الرحمن : « أما كتاب هروسيس Orosius فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرؤه باللسان اللطينى ، وإن كاشفتهم عنه نقلوه لك من اللطينى إلى اللسان العربى » .

ويقول ابن خلدون : إن هذا الكتاب ترجم للحكم المستنصر ، ترجمه له قاضى النصارى وقاسم بن أصبغ [١] . أما قاضى النصارى فى قرطبة أيام الحكم فهو وليد بن حيزون [٢] .

ومما يلحق بهذا النشاط العلمى كثرة الأطباء وعلماء التنجيم الذين تجمعوا حول الناصر والمستنصر ، وكان الأسقف القرطبى ابن زيد مختصًّا بالمستنصر ، وله ألّف كتابَ « تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان » [٣] . أما الطبيب حسداى بن إسحاق اليهودى فقد استغلّ حظوته

(١) انظر ترجمة قاسم فى الجذوة : ٣١٢ ، وقد توفى سنة ٣٤٠ هـ ، ومن هذا يستبعد اشتراكه فى الترجمة .

(٢) النفح ١ : ١٨٤ .

(٣) النفح : ٢ : ٧٧٨ .

عند الحكم ، وتوصَّل من ذلك إلى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق ، ففتح بذلك ليهود الأندلس باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك ، وكانوا من قبل يعتمدون فى فقه دينهم وسنى تاريخهم ومواقيت أعيادهم على يهود بغداد [١] .

وخصص الحكم جانباً من دار الملك يجلس فيه العلماء للتأليف أو الترجمة أو مقارنة النسخ الوافدة ، وفى تلك الدار جمع مرة بعض علماء اللغة وهم محمد بن أبى الحسين وأبو على القالى وابنا سيد ، وطلب إليهم أن يقابلوا نسخ كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، وأحضر لهم من الكتاب نسخاً كثيرة ، بينها نسخة كتبها القاضى منذر بن سعيد البلوطى رواية عن ابن ولاد بمصر [٢] .

* * *

ولعل أبرز ما أدّاه الحكم فى تاريخ الثقافة الأندلسية هو حفزُه الملكات الأندلسية على التأليف وجمع التراث الأندلسى ، فجُمعت له كتبٌ كثيرة فى أخبار شعراء الأندلس ، رأى منها ابن حزم « أخبار شعراء إلبيرة » فى نحو عشرة أجزاء [٣] . وأمر بجمع شعر ابن عبد ربه ، وقد رأى منه الحميدى عشرين جزءاً ونيِّفاً مما جمع للحكم [٤] ، وأمر إسحاق بن سلمة — وكان حافظاً لأخبار الأندلس — أن يجمع كتاباً فى أخبارها [٥] . وألف له ابن فرج كتاب « الحدائق » ، وضمَّنه شعر الأندلسيين فقط ، معارضاً فيه كتاب « الزهرة » لمحمد ابن داود ، مُرْبياً عليه فى عدد الأبواب والأبيات [٦] . وألّف له أيضاً خالد بن سعد كتاباً فى رجال الأندلس اتخذه ابن الفرضى مصدراً له فى تاريخه [٧] .

(١) ابن أبى أصيبعة ٢ : ٥٠ .

(٢) الجذوة : ٤٧ .

(٣) النفح ٢ : ٧٧٣ .

(٤) الجذوة : ٩٤ .

(٥) ابن الفرضى ١ : ٨٩ .

(٦) الجذوة : ٩٧ ، والمغرب ٢ : ٥٦ .

(٧) ابن الفرضى ١ : ١٥٥ .

وطلب إلى محمد بن الحارث الخشنى ، أيام كان الحكم وليًّا للعهد ، أن يؤلف كتاباً فى قضاة الحاضرة العظمى — قرطبة — فكتب كتابه المسمى : « قضاة قرطبة » ؛ وبيّن فى مقدمة ذلك الكتاب مدى رغبة الحكم فى التذكير بالمنسىّ من الأنباء والإشارة للسالف من القصص ، وبخاصة ما كان فى الأندلس قديماً ، وفى عصر الحكَم حديثاً . ووصف اندفاع العلماء إلى التأليف بقوله : « فتحرك أهل العلوم بما حركهم إليه الأمير الموفق ، فاستحفظوا ما أضاعوا من غرر الأخبار ، وقيدوا ما أهملوا من عيون المعارف »[١] ؛ وللخشنى ، عدا هذا الكتاب ، كتب أخرى كثيرة ألّفها جميعها للحكَم المستنصر[٢] .

ولم يكن الحكم يدع فرصة تفوته ، إذا أمكنته ، فى تشجيع التأليف ، وله فى هذا الباب أخبار تدل على استغراق شديد فى هذا الأمر : من ذلك أنه أراد الغزو مرة سنة (٥٣٢ هـ) ، فاعتذر عن مصاحبته فى تلك الغزوة عالم اسمه ابن الصفّار ، لضعف جسمه ، فأرسل إليه من يقول له : « إن ضَمن أن يؤلف فى أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصُّولىّ فى أشعار خلفاء بنى العباس أعفَيْته من الغَزاة » ؛ فاختار ابن الصفّار التأليف على الخروج فى الغزو ؛ وعندئذ خيّره الحكم بين أن يكتب الكتاب فى بيته أو فى دار الملك ، فاختار أن يكتبه فى دار الملك ؛ ليكفل لنفسه الانقطاع والوحدة ، وينفرد دون الزائرين والمترددين إلى بيته . ولما كمل الكتاب فى مجلد واحد حمل إلى الحكم ، واستقبل به ، وهو راجع من غزاته ، فتلقاه مسروراً[٣] .

وكثيراً ما كان الحكَم يتعدى حدّ اقتراح الموضوع على المؤلف ، فيرسم له طريقة تبويبه وتقسيمه ، كما فعل مع الزُّبيدى عندما طلب إليه أن يكتب كتاباً فى طبقات النحويين ؛ فقد عرّفه المنهج الذى يريد أن يسلكه فى تأليف الكتاب ، يقول الزبيدى فى مقدمته :

« وإن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله، رضى الله عنه، لما اختصّه الله به ، ومنحه الفضيلة فيه ، من العناية بضروب العلوم، والإحاطة بصنوف الفنون، أمرنى بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين فى صدر الإسلام، ثم من تلاهم من بعدُ، وهلمّ جرّا ، إلى زماننا هذا ، وأن أطبقهم على أزمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم فى العلم ومراتبهم . . . فألفت هذا الكتاب على الوجه الذى أمرنى به . . . وأقمته على الشكل الذى حدّه ، وأمدّنى ، رضى الله عنه ، فى ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعنى من روايته وحفظه ؛ إذ هو البحر الذى لا تعبر أواذيّه ، ولا تدرك سواحله ، ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته»[١] .

ولم ينس الحكم أن يفرد للنحويين واللغويين الأندلسيين قسماً خاصًّا فى ذلك الكتاب . ويفهم من مقدمة « لحن العامة » أن الزبيدى ألّفه للحكم المستنصر كذلك[٢] .

* * *

وشجّع الحكم أيضاً التأليف فى الفقه والحديث ، فعهد إلى يعيش بن سعيد بن محمد الوراق بتأليف مُسند حديث ابن الأحمر ، وكان قد سمعه من صاحبه[٣] وجمع له ابن المكوى بالتعاون مع المعيطى كتاباً سمّياه « الاستيعاب » من مائة جزء ، جمعا فيه رأى مالك وأقاويله ، فسُرّ بذلك ، ووصلهما ، وقدمهما إلى الشورى فى أيام القاضى محمد بن إسحاق السليم[٤] .

---

(١) قضاة قرطبة : ١٠ — ١١ .

(٢) ابن الفرضى ٢ : ١١٥ .

(٣) الجذوة : ٢٣٥ .

---

(١) طبقات الزبيدى : ٩ — ١٠ .

(٢) انظر الورقة الثالثة من لحن العامة ، نسخة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

(٣) الجذوة : ٣٦٤ .

(٤) الصلة : ٢٨ .

وأمر من بوّب له مستخرجة العتبى فى الحديث ، وهى مجموعة أكثر فيها مؤلفها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة[١] .

ولم ينس الحَكم أمر التعليم ، فاتخذ المؤدبين ليعلموا أولاد الضعفاء والمساكين القرآن ، وأنشأ لذلك حول المسجد الجامع ، وفى أرباض قرطبة ، سبعة وعشرين مكتباً، وأجرى المرتبات على المؤدبين ، وعهد إليهم الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم[٢] .

* * *

من كل ذلك يتجلى لنا مدى الجهد الذى بذله الحكم المستنصر فى نشر الثقافة وتشجيع العلم ، مؤيداً كل أعماله بروح من التسامح . وقد تقلص ظل التسامح بعد وفاته ، حين عمد المنصور بن أبى عامر إلى خزائنه واستخرج الكتب المتصلة بعلوم الأوائل ، وأمر بإحراقها وإفسادها تحبباً إلى العامة واستئلافاً لقلوبهم[١] .

وقضت الفتنة البربرية سنة (٣٩٩ هـ) على الجانب الأكبر من جهود الحَكم ، وهو تلك المكتبة الحافلة التى كونها ؛ فقد نُهبت المكتبة فى الفتنة ، كما نهبت غيرها من المكتبات . وكان لهذه الكارثة وجه طيب ؛ فإن كثيراً من الكتب بيع فى سائر المدن الأندلسية ، وتعرّف الناس خارج قرطبة ما لم يكن تصل إليه أيديهم من علوم .



---

(١) ابن الفرضى ٢ : ٧٦ .
(٢) ابن عذارى ٢ : ٣٥٨ (ط . بيروت) .

(١) طبقات صاعد : ٥٥ .